كلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني

رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

أيها السيدات والسادة

هل لوجود الإنسان من مغزىً إنْ لم يكن قد طَبَع ذلك الجزءَ من العالم الذي شاء القدر أن يكون من ساكنيه، طَبَعَه بما يصدر عن عقله من فكر يتصدّى لحقائق العالم، شارحًا لها، أو ما تنتجه يداه من أثر تتجلى فيه المؤثرات السائدة والمُهيكلة لعصره؟

نحن أعضاءَ مجمع اللغةِ العربيةِ لَسْنا سوى أفراد قد انتخبهم أفرادٌ قد سبقوهم إلى شرف العمل في خدمة اللغة العربية، وصَلنا إلى المجمع حاملين لخبرات وطاقات فكرية وأمداء ثقافية تم تشكّلها من شذراتٍ جمعناها، من خلال تفاعلنا مع العلوم وطالبيها، ومع التيارات الفكرية الناقدة والمفسّرة، والمعدّلة لآراء وأحكامٍ جرى تداولها في العلوم التي اختص بها كلٌ منا، فكان لزامًا علينا إجالة الفكر في توضيح ما طرأ من تغيّرات على ما كنّا نعتمده من حقائق في ذلك المجال، ساعين إلى تطوير اللغة بما يستوعب تلك التغيرات.

وحين يُصاب مجمعنا بفَقد عضو كان يملأ حيزًا فكريًا محدداً، فإننا نسارع إلى إبراز ما نعتقد أنه كان متميزًا به من نتاج فكري، أو مواقف جريئة في كفاحه لإثبات حقائق كانت غائبة عن الفكر المجتمعي وبخاصة ما يتعلق بالحداثة، وذلك سعيًا وراء إعادة اللغة العربية إلى بريقها المعهود محمّلة بعلوم جديدة لا تضيقُ عن احتوائها تلك اللغة العريقة.

وإني إذ أقف اليوم لافتتاح الحفل التأبيني لفقيدة مجمعنا الدكتورة ليلى الصباغ رحمها الله أرى لزامًا علي الإصرار على ما كان يمثله وجودها في المجمع.

لقد مرت عقود منذ أسس الرئيس محمد كرد علي هيئةً أُطلق عليها اسم المجمع العلمي العربي عام ١٩١٩ ليضم ثلّةً من العاملين البارزين في إتقانهم للغة العربية، والمتمكنين في استعمالها على أعلى المستويات العلمية والثقافية، في جوٍّ غلبت عليه محاولات التتريك المتعصّبة.

إن عهد الاستقلال الأول الذي أُعلن فيه الأمير فيصل بن الحسين ملكًا على سورية كان يحفِل بتحركات وطنية التفّ فيها الشباب حول حكم عربي كانوا يتمنّونه في خواطرهم ولا يجرؤون على الإجهار بتَوقِهم إليه.

ومما يذكره التاريخ أن نساء سورية انضممن إلى الرجال في غليان جماهيري عارم حين تصدى الجيش الوطني للقوى الفرنسية الزاحفة على سورية لتنفيذ صك الانتداب، وأصدرن البيانات لحثّ الشباب على الالتحاق بالجيش للدفاع عن الوطن، كما انخرطت مجموعة كبيرة من سيدات المجتمع في الجيش، وحضرن معركة ميسلون آسياتٍ للجرحى وداعماتٍ للصمود، وقد وصل الأمر في تقديرهنّ إلى إعطاء رتبة عسكرية لإحداهنّ وهي السيدة نازك العابد.

لم تكن هنالك فُرص لمشاركة نسائية في مجالات ثقافية عالية متخصصة كمجالات المجمع العلمي حين تأسيسه، بل برز نشاطهن متميزًا في حقول التعليم، آخذًا بالتوسع مع خطواتِ انتشار تعليم البنات.

ومرّت العقود تلو العقود، تشهد إقبالًا متصاعدًا من قبل الناشئات على إتمام الدراسة ومواصلتها بعد الشهادة الثانوية، حين افتتحت دارٌ لتأهيل المعلمات، وهذا ما ساهم في الارتقاء بالمستويات التدريسية في المراحل الابتدائية والثانوية، وانتهت هذه الإرهاصات الأولى في تعليم البنات إلى فتح أبواب التعليم الجامعي في الآداب والعلوم الإنسانية، وذلك في نهاية النصف الأول من القرن الماضي (١٩٤٧)، ودخلت الطالبات

أفواجًا إلى تعليم مختلط بعد عصور من التزمّت والتعصّب، وأصبحن فيما بعد مدرسات في مدارسَ للبنات انتشرت في جميع المحافظات.

وهكذا كان أن اجتازت فقيدتنا شهادة البكالوريا الأولى عام ١٩٤٢ والبكالوريا الثانية (فرع الفلسفة) عام ١٩٤٣ لتلتحق بكلية الآداب في جامعة القاهرة حيث حصلت عل إجازة بالتاريخ بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٤٧. وحين عادت إلى دمشق دخلت مجال التدريس في المدارس الثانوية ودور المعلمات حتى عام ١٩٥٤.

وارتقى بها نجاحها في فنّ التدريس إلى تسنّم منصب مديرة التجهيز الثانية للبنات، حيث برزت قدراتها الإدارية والعلمية، التي جعلت من تلك المدرسة نموذجًا يُحتذى في الانضباط وحسن السلوك، والمستوى الرفيع من النجاح في الشهادات الرسمية طيلة ثمانية أعوام.

إلا أن طموحها قد حثّها على اللحاق بالدراسات العليا في علم التاريخ، فعادت إلى القاهرة طالبة لشهادة الماجستير.

وقد حازتها بمرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة في فرع تاريخ العرب الحديث عام ١٩٦١ ثمّ أتبعتها بالدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى كذلك عام ١٩٦٦.

ودخلت التدريس الجامعي في كلية الآداب بدمشق عام ١٩٧١ لتصل إلى الأستاذية بدءًا بعام ١٩٧٨ وحتى ١٩٩٣.

إن أطروحتها للماجستير كان عنوانها: الفتح العثماني لبلاد الشام ومطلع العهد العثماني فيها، على حين كان عنوان أطروحتها للدكتوراه: الجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ولابد من القول إن هذين العنوانين لا يعطيان أكثرَ من فكرة محدودة عن المجالات المختلفة التي انغمست فيها، واستقصت خباياها الدكتورة ليلى الصباغ رحمها الله حين تناولتها في كتبها ودراساتها وبحوثها.

أيها السيدات والسادة

لا يسمح مجال هذا الحفل التأبيني بأن نلقي أكثر من نظرة عابرة على الموضوعات التي أعملت فيها فكرها التاريخي، الذي اتّصف بلمحات مجتمعية، وأخرى اقتصادية، إلى جانب دراسات في الأدب العربي بين القرنين السادس والثاني عشر للهجرة، وفي الحضارة العربية الإسلامية. وقد خصصت كتابًا عن المحبّي صاحب كتاب خلاصة الأثر، وكتابين عن المؤرخ الكبير ساطع الحصري، كما أنها وزّعت بحوثها بين شخصيات تاريخية كعبد الملك بن مروان، وأحداث تاريخية هامة كثورة مسلمي غرناطة عام ١٥٦٨. كما أنها أعطت للمرأة العربية حقَّها تاريخيًا في كتابها عن المرأة في العصر الجاهلي، وعن المرأة المعاصرة في كتابها عن الأدب النسائي المعاصر العربي والغربي، وفي كتابها: نساء ورجال في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع.

ولعل كتابَها عن منهجية البحث التاريخي هو الألصَقُ باختصاصها مما كتبته في تفّرعات ذلك الاختصاص، ذلك أن الحاجة إلى نظرة عصرية فاحصة تربط بين النظريات التاريخية الحديثة وبين مسارات المؤرخين العرب القدامى، كانت حاجةً مُلّحة لإظهار سَبْق ابن خلدون إلى معظم المسالك التي يسلكها المؤرخون المعاصرون كبروديل[1] وتوينبي، وجورج دوبي، وكذلك هيغل في دروسه عن فلسفة التاريخ.

فقد تجاوز ابن خلدون مسارات المؤرخين السابقين له، وبخاصة الإخباريين والمهتمين بتاريخ المغازي، وعيون الأخبار، والمرددين لروايات السلَف، واختط منهجًا يستقصي العوامل المؤثرة في مجريات التاريخ. والمؤسف أن العرب تعرفوا بابن خلدون وعبقريته بعد أن

(1) Braudel / Toynbee / Georges Duby / Hegel

اكتشف سيلفستر دو ساسي[1] مقدمة ابن خلدون عام ١٨٠٦ ثم ترجمها ونشرها كاترمير[2] عام ١٨٥٨ وكان أن انبثقت عن دراسة الغرب لمقدمة ابن خلدون معظمُ العلوم الإنسانية الحديثة، كعلم الاجتماع، وعلم البشريات، والسياسة والاقتصاد، بالاستناد إلى طروحٍ تضمنتها مقدمة ابن خلدون.

إن كتاب الدكتورة الصباغ (١٩٨٠) هو دراسة عصرية تُقدّم منهجية نقدية علمية تجيب عن بعض التساؤلات عن حقائق كتابة التاريخ، وذلك من قبل باحثة مثقفة ثقافةً معرفية تراكمية عالية، وهو كتاب هام يسعى إلى قراءته اليوم من أراد تجاوزَ هجوم كلٍّ من عبد الله عنان وبخاصة الدكتور طه حسين على ابن خلدون الذي يتهمه بالخيانة والشعوبية، وقد ردّ عليه ساطع الحصري في كتابه «دراسات عن مقدمة ابن خلدون».[3]

وأما اهتمامها بدراسة أوضاع الجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهو الموضوع الذي بنت عليه رسالة الدكتوراه، فهو التفات إلى النواحي الاجتماعية والروافد الحضارية التي ظهر تأثيرها في بلاد الشام بعد تعرّضها لغزو الفرنجة.

فحقيقة الأمر أن اختزال غزوات الفرنجة لبلاد الشام بأنها مجرّد جولات عسكرية احتلت البلاد، وأقامت فيها الحصون لتحرس المناطق التي تم احتلالها وتأسيسُ إمارات فيها، إنما يكون تجاهلًا لحقائق ما يعنيه هذا الاحتلال طيلة عقود وعقود من تاريخ بلاد الشام، من أثر مجتمعي وثقافي، وما يتركه في اللغة من مفاهيمَ غريبة وتسمياتٍ دخيلة. فقد أصرّ المؤلفون الفرنجة في كتبهم على توصيف ما رأوه في بلاد الشام من عادات ونشاطات تجارية استفاد منها الغزاة ولم يقيموا وزنًا لما تركوه من أثر في البلاد المحتلة.

---

(1) Sylvestre de Sacy

(2) Quatremère

(٣) ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٨-٥٨٢ دار المعارف القاهرة ١٩٥٣.

وأما دراسة الدكتورة ليلى الصباغ فتختصّ بأثر تلك الجاليات الأجنبية التي أخلفها الاحتلال بعد جلاء جيوشه، إذ إن الجمهوريات الإيطالية كجنوا وبيزا والبندقية، التي كان لها دور كبير في تثبيت الاحتلال بتسخير أساطيلها لخدمة الغزو، قد أفرزت رواسيَ تجارية في معظم مدن بلاد الشام، اتخذت شكل مؤسسة تجارية قائمة في حيز معين، في بيروت وطرابلس ودمشق وحلب، أطلقوا عليها اسم «الفندق» يقيم فيها التجار الأجانب ويختزنون بضائعهم فيها. وكانت لهذه الفنادق سيطرة حقيقية على تجارة الأقمشة، والتوابل والعاج، والأحجار الكريمة والكهرمان، وهي تتولى تصدير الأقمشة الشرقية المطرزة والسيوف الدمشقية، وماء الورد والفواكه المجففة.

وقد تأكد استقرار تلك المؤسسات بحماية فرنسية بعد أن قبلت السلطنة العثمانية وجودَ امتيازات لهذه الجاليات عام ١٥٨١، وهذا ما دعا الدكتورة الصباغ إلى دراسة الأثر الحضاري لتلك الجاليات، وما أدخلته من مفاهيمَ ومفرداتٍ مازالت واضحة في لغتنا، لتسمية أمور مختلفة دخلت في التداول اليومي، في مجالات المال والتجارة والأمور الحياتية، ومازالت قائمة في مخزوننا الثقافي واللغوي، وهي جاليات لم تقتصر على رجال التجارة والمال بل إنها ضمّت أطباء ومهندسين وبعثات دينية.

كما أنه كان لفقيدتنا مسارٌ فكري واسعُ الأفق في المجال التاريخي جعلها تدرُس أحداثًا هامةً لم يتطرق إليها كثير من المؤرخين، كدراستها عن ثورة مسلمي غرناطة عام ١٥٦٨ التي شرحت فيها أحوال الموريسكيين، أولئك الأندلسيين المسلمين الذين قبلوا اعتناق النصرانية بعد سقوط الأندلس عام ١٤٩٢، ليبقوا في بلادهم وكانوا يمارسون إسلامهم خفيةً، واخترعوا لأنفسهم لغةً عربية كتبوها بحروف لاتينية للتواصل بينهم. وقد تم طردُهم من إسبانيا عام ١٦٠٠ واستقر معظمهم في المغرب العربي.

وهكذا نرى أن عمق وتنّوع إنتاج الدكتورة ليلى الصباغ رحمها الله مضافًا إلى تميزها في المستويات التدريسية المختلفة التي تولت مسؤوليتها، وبخاصة انفتاحها الثقافي الواسع، كلُّها أمور جعلت ترشيحها لعضوية مجمع اللغة العربية أمرًا مفروضاً، وقد تجاوب معه مجمعنا عام ٢٠٠٠، متجاوزًا أعرافًا لا مُستندَ تراثيًا لها، فانتخبت عضوًا عاملًا في مسارٍ لم تسلكه المجامع العربية الأخرى حتى اليوم، فكانت أول امرأة تدخل مجمعًا علميًّا عربيًّا. وكان استقبالها عام ٢٠٠١ خلفًا لأستاذي الكبير الرئيس الدكتور حسني سبح رحمه الله، وقد أبرزتْ في خطاب استقبالها حذقَه اللغوي المستندَ إلى ملكة حقيقية في اللغة الأم وفهم واضح للمصطلح الآتي من لغة أجنبية تعتمد جذور لغتين بائدتين.

أيها السيدات والسادة

إن مراجعة السيرة الذاتية لفقيدتنا تكشف لنا أنها لم تشأ الانخراط في الحركات النسائية التي ضمت معظم المثقفات في بلاد الشام طيلة القرن العشرين تحت تسميات ثقافية واجتماعية، بل إنها اكتفت تضمين كتبها ودراساتها ما يؤكد ذلك الموقع العميق الأثر، الذي تبوأته المرأة العربية منذ العصر الجاهلي، وصولًا إلى العصر الحديث، في مجالات الأدب شعرًا ونثرًا وفي مجالات الفكر والسياسة.

بل إن تلك المراجعة للسيرة الذاتية تبيّن ولَعها بالعملية التدريسية على مستوياتها المختلفة، مُدرّسةً للتاريخ في التعليم الثانوي منذ تخرجها عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٥٤، إضافة إلى إدارة مدرسة التجهيز. وانتدبت أستاذةً زائرة في جامعة الجزائر انتقلت بعدها إلى تدريس التاريخ في جامعة دمشق حتى عام ١٩٩٣.

لقد ارتكز هذا المسار التدريسي إلى شغف حقيقي بدقة التعبير، وهي تستند في عملية الإفهام إلى مسار فكري يعضده مخزون ثقافي واسع. فقد كانت الدكتورة ليلى الصباغ كما عرفناها في مجمعنا تملك قدرةً متميزة على توضيح فكرتها في كل موضوع تناولته، إذ كانت حريصة على أن يصل المتلقي إلى فهمٍ دقيق للرأي المطروح، وذلك اعتمادًا على خبرتها التدريسية، إذ إنه لا يكفي للمدرس أن يكون متمكنًا من علمه، فاهمًا لدقائقه، بل لابد له من الوصول إلى إفهام المتلقي عن طريق ترتيب العناصر المعروضة وتقديمها تقديمًا مترابطاً. ولاشك بأن دراستها للفلسفة في نهاية الدراسة الثانوية قد أسست مستندًا لها لتنسيق الخطاب، بما يراعي قواعد المنطق ويراعي المدارك العقلية للمتلقي. إن هذه المستندات الفكرية أساسية في تدريس التاريخ الذي يلتقي فيه الماضي بالحاضر، والذي يتطلب نظرة تحليلية تفسّر الوقائع، وتشرح ما يمكن الوصول إليه من مُسبباتها ليمكن توضيح التناغم بين الأفعال وبين أصدائها.

ولعلّ عزوفَها عن المشاركة في الجمعيات النسائية يعود إلى أنها أيقنت أن مساهمتها في تلك النشاطات لن توصل المجتمع إلى ما يصبو إليه من مشاركةٍ حقيقية للمرأة في مختلف المجالات الاجتماعية، إن لم تكن المرأة قد وصلت عن طريق التعليم القويم إلى إدراك ما لها من موقع مركزي في حياة الأمة، كي لا تقبل ما كان سائدًا من تهميش للمرأة، وتشكيك في مقدرتها على المشاركة في بناء الوطن.

ولقد كانت مساهمة فقيدتنا في الوصول إلى هذا الهدف باديةً فيما شهد به العديد من المثقفات اللواتي ظهرن على مسرح الحياة، وكنّ يَلهَجْن بالثناء على تميزها في العملية التعليمية، والحكمة التي كانت تسيّر بها أمور البنات حين تولّت إدارة التجهيز الثانية بدمشق.

أيها الحفل الكريم

تمرّ الأيام بأفراحها وأتراحها، نجد فيها المُسِرّ قصيرًا والمُحزن طويلاً، ونبقى منطلقين في مساراتنا الحياتية تحملنا ثقافة تَشرّبتها عروقنا، مُعبّرين عن ذواتنا بلغة عريقة تتفاعل في داخلها جُزيئات حية يتكامل تناسقها لتنبلج عنها في أذهاننا صورٌ وتخيلات تثير المشاعر، وتتحكم في تفاعلنا مع ما يحيط بنا.

إن لغتنا هي تاريخنا كمجموعة بشرية تفاعلت مع الأحداث والنائبات، والهزائم والانتصارات، فأصبحت جزءًا مكونًا في تاريخ المجموعات البشرية الأخرى، إذ إنها شاركت في إقامة الحضارة التي نتفيأ ظلالها، وهذا ما يجعل موقعَ لغتنا في المسار الحضاري معرفةً لابد للتعليم أن يرسّخ أصولها في أدمغة الناشئة، ليصلوا إلى فهم عالمهم فهمًا نيّرًا يرتكز إليه مسارهم الحياتي.

نحن في مرحلة تاريخية نرى فيها الغوائلَ تَنهش في حقائق حضارتنا ومرتكزات ثقافتنا بغية إغراقنا في لجّة العولمة، وهذا ما يجعلنا نرى في تدريس التاريخ، والمساهمة في تسليط الأضواء على منعطفاته، رسالةً نبيلة تنمّي القواعد الفكرية التي يبني عليها الطالب إدراكه لذاته، وتتيح له فُرص التعرف بالآخر، وهذا ما يجعلنا نُعظم شأن من يسعون إلى كشف خبايا التاريخ وشرح غوامضه، وتسليط الأضواء على تضاعيفه.

ونحن اليوم إذ نشيد بفقيدتنا أستاذةً كبيرةً قد تمثلت فيها روح الأستاذية على خير وجه، كما تمثلت فيها الدوافع إلى توضيح ما بقي غامضًا من أحداث ومنطلقات تاريخية، نؤكد إكبارَنا لهمّةٍ عالية حملت لواء الإخلاص للعلم، وكانت مثالًا للتجرّد في خدمة ثقافتنا العريقة، وقد أكّدت جدارة المرأة في بلادنا، ومقدرتها على المشاركة في بناء الشخصية العربية الحديثة.

وإني إذ أبدي تقديري لاهتمامكم وأشكر لكم حضوركم أرجو من الله أن يخص فقيدتنا بواسع رحمته ويسكنها فسيح جنانه.

والسلام